طرائف من ادب العرب

تمهيد

كثيراً ما تسمع طالبي الادب العربي يسألون عن احسن كتاب او كاتب فيهِ . وقد قرأت مثل هذا السؤال غير مرة في مجلاتنا ورأيت المجلات الاوربية تطرق هذا الباب ايضاً لتستفتي قراءها في افضل الكتّاب والكتب في لغتهم فيفتيها كلٌّ في الكاتب او الكتاب الذي يفضلهُ على غيرهِ في ذوقهِ مبيناً اسباب التفضيل

ولما كان جمهور قراء المجلات في الشرق ممن لا يمكّنهُ حالهُ او وقتهُ او اسباب اخرى من درس كتب الادب العربي لمعرفة فاضلها من مفضولها فيختار الاول ويرجع اليهِ لفائدة او لفكاهة رأيت ان انشر سلسلة مقالات ألخّص فيها بعض كتب الادب العربي . فانقل شيئاً من محاسنها وطرائفها واعلّق عليهِ بما يحلو لي . وسأبدأ بكتاب الكشكول لا لانهُ مقدم على غيرهِ في نظري — والواقع انهُ ليس كذلك — بل لان خاطر التلخيص والتعليق خطر لي وانا اقلّب هذا الكتاب بين يدي واقرأ سطورهُ فاتحوّل من الاستحسان الى الاستهجان ومن الاستملاء الى الاستمرار باقل من لمح البصر . على ان قراءة هذا التلخيص لا يذالون ما ذقت من خلّ كتب الادب العربي مع خمرها لاني عزمت ان ادير عليهم خمر الادب دون خلّهِ فيشربوها صرفاً سائغة ويكفروا حمض الخلّ . و يا ليتني كفيتهُ انا

وقد أردف هذه الطرائف بمثلها من الادب الغربي ليقابل القارئ بين الاديبين

الكشكول

قيل في اول الكتاب انهُ « غاية الادباء وكعبة الظرفاء محمد بهاء الدين العاملي » . وقال المؤلف بعد البسملة انهُ لما فرغ من كتابهِ المسمّى « المخلاة » لفق كتاباً ثانياً على نسقهِ وسماهُ « بالكشكول » . اما المخلاة فلم اقف عليها والاّ لكنت قدمتها على الكشكول في تفكهة القراء بها لتقدمها عليهِ في الزمان

ولد صاحب الكشكول في بعلبك من اعمال الشام في آخر سنة ٩٥٣ هجرية (او اواسط القرن السادس عشر للمسيح) وانتقل بهِ ابوهُ الى بلاد فارس حيث تلقى العلم وولي مشيخة الاسلام . ثم حجّ البيت وزار المقام في المدينة وساح ثلاثين سنة وعاد الى فارس ولهُ اكثر من عشرين حاشية وتفسيراً وشرحاً ومؤلفاً في مقاصد شتى من دينية ولغوية وفلكية ورياضية . اما كتابهُ الكشكول فالّفهُ عند زيارته لمصر ولعل ذلك سبب ما حواهُ

من النكات والطُّرَف . وكان يجتمع مدة اقامته بمصر بالاستاذ محمد بن ابي الحسن البكري . ومما زار من المدن المشهورة القدس الشريف ودمشق الشام وحلب الشهباء . وكان يعرف باسم المنلا بهاء الدين . وتوفي سنة ١٠٣١ هجرية في اصبهان من مدن ايران . وغنيٌّ عن البيان انهُ كان شيعيًّا (١)

وقد عنيت بان لا انقل من الكتاب الاَّ ما لم ارهُ في كتب الادب الحديثة التي لخصت من كتب الادب العربي . واذا كان هناك رواية او حكاية طويلة اختصرتها محافظًا على لغة صاحبها . وساورد ما انقلهُ بين علامات الاقتباس . وفي حال التعليق اتركهُ مطلقًا غير محصور بينها . ولا بدَّ من القول ان صاحب الكشكول ليس من الكتَّاب المبرزين ولغة كتابهِ ركيكة حيث يكون منشئًا بليغة حيث يكون مقتبسًا من اعاظم الكتبة . ولا يذكرهُ « المستشرقون » من اهل الغرب فيما يكتبون عن كتَّاب العرب

عابد لبناني

« روي انهُ كان في جبل لبنان رجل من العباد منزويًا (٢) (كذا) عن الناس في غار في ذلك الجبل . وكان يصوم النهار ويأتيهِ كل ليلة رغيف يفطر على نصفهِ ويتسحَّر بالنصف الآخر . فاتفق ان انقطع عنهُ الرغيف ليلة من الليالي فاشتدَّ جوعهُ وبات تلك الليلة في انتظار شيء يدفع بهِ الجوع فلم يتيسر لهُ شيء . وكان في اسفل ذلك الجبل قرية سكانها نصارى . فلما اصبح العابد نزل اليهم واستطعم شيئًا منهم فاعطاهُ رغيفين من خبز الشعير فاخذهما وتوجه الى الجبل . وكان في دار ذلك الشيخ النصراني كلب حربٌ مهزول فطرق العابد وقع عليهِ فألقى اليهِ رغيفًا ليشتغل بهِ عنهُ فاكلهُ ولحقهُ تارة اخرى فالقى اليهِ الرغيف الآخر فاكلهُ ولحقهُ واشتد هريرهُ فقال العابد سبحان الله اني لم ارَ كلبًا اقل حياء منك . ان صاحبك لم يعطني الاَّ رغيفين وقد اخذتهما مني . ماذا تطلب بهريرك . فانطق الله تعالى ذلك الكلب : لست انا قليل الحياء . اعلم اني ربيت في دار ذلك النصراني احرس غنمهُ واحفظ دارهُ واقنع بما يدفعهُ لي من عظام او خبز . وربما تسيبني فابقى اياماً لا آكل شيأً (٣) بل ربما يمضي علينا ايام لا يجد هو لنفسهِ شيئًا ولا لي ومع ذلك لم افارق دارهُ منذ عرفت

(١) وعلى ذكر الشيعة اقول انهم يحسنون في الشام معاملة جميع متوالي . ذلك بانهم تولوا عليًا واهل بيتهِ كما جاء في محيط المحيط (٢) نصبها على انها خبر كان المقدمة وحقها ان ترفع على التبعية لانها صفة او نعت لرجل . ورجل قاعل لكان وهي هنا تامة بمعنى وجد (٣) كذا ملهمت في الكتاب كلهِ بوضع الهمزة على الالف

تنسى ولا توجهت الى باب غيره بل شكرت والاَّ صبرت . واما انت فبانقطاع الرغيف عنك ليلة واحدة لم يكن عندك صبر حتى توجهت من باب رازق العباد الى باب نصراني فايُّنا اقل حياء انا ام انت . فلما سمع العابد ذلك ضرب يديه على رأسه وخرَّ مغشيًّا عليه »

والقصة موضوعة ولكن مغزاها حسن

بَرَدٌ كبير ومطر حجارة

« ذكر في الكامل في حوادث سنة ٢٨٥ انهُ حدث بالبصرة ريح صفراء ثم خضراء ثم سوداء ثم تتابعت الامطار وسقط بَرَدٌ وزن كل واحدة مائة وخمسون درهمًا . وفي هذه السنة حدث بالكوفة ريح صفراء وبقيت الى المغرب ثم اسودت ثم حصل مطر عظيم ومطرت قرية من نواحي الكوفة تسمَّى احمد اباد حجارة سوداء وبيضاء في اوساطها طين[1] وحمل منها الى بغداد فرآتهُ الناس وتعجبوا من ذلك غاية العجب »

والخبر من تاريخ الكامل لابن الاثير ولسنا نعلم ان في نواحي الكوفة قرية تسمى احمد اباد وكل ما نعلم ان هناك مكانين بهذا الاسم احدهما « قرية من قرى ريوند من نواحي نيسابور والاخرى قرية من قرى قزوين على ثلاثة فراسخ منها » كما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي على ان احمد اباد الهندية مدينة كبيرة سكانها نحو ٢٠٠ الف نسمة وهي عاصمة مقاطعة بهذا الاسم ايضًا . ولم يذكر ياقوت هذه المدينة لانها بنيت بعد زمانهِ بنحو قرنين . فان ياقوت عاش في النصف الاخير من القرن الثاني عشر واوائل الثالث عشر للمسيح ومدينة احمد اباد الهندية أسست في اوائل القرن الخامس عشر وموَّسسها احمد شاه الهندي وقد سميت هي ومقاطعتها باسمهِ

اما البَرَد الكبير ومطر الحجارة فمن الظواهر الطبيعية الكثيرة الحدوث حتى لقد ذكروا مطرًا من السمك وآخر من البرتقال وآخر من الموز . وسببها ان الاعاصير تجتاح اليابسة فتحمل ما في طريقها وترفعهُ الى اعالي الجوّ ثم يهبط بقوة الجاذبية متى خفت قوة الاعاصير فان كان حملها حجارة مطرت حجارة او فاكهة مطرت فاكهة او غير ذلك مطرت غير ذلك

القيصة الغبية

قال من كتاب « روينا عن سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر انهُ قال : يجاء بالعبد يوم القيامة فتوضع حسناتهُ في كفة وسيآتهُ في كفة . فتجيء بطاقة فتقع في كفة الحسنات فترجح بها فيقول يا ربِّ ما هذه البطاقة فما من عمل عملتهُ في ليلي ونهاري الاَّ استقبلت بهِ . فيقول عزَّ وجلَّ هذا ما قيل فيك وانت منهُ بريءٌ »

---

(١) طمست كلمة « طين » في الكامل « طبق » وهذا خطأ

وهذا اجمل ما يمثل ان الغيبة لا تضرُّ من يغتاب بل تنفعهُ . وقد سماها الانكليز (backbiting) اي عضّ الظهر ونهشهُ

أكل ثابت التلكوب ام اشعة اكس ؟

« حكى الامام فخر الدين الرازي في اول السرّ المكتوم قال : قال ثابت بن قرة ذكر بعض الحكماء كحلاً يقوي البصر الى حيث يرى ما بعُد عنهُ كأنهُ بين يديهِ . قال وفسلهُ بعض اهل بابل فحكى انهُ رأى جميع الكواكب الثابتة والسيارة في موضعها . وكان ينفذ بصرهُ في الاجسام الكثيفة فكان يرى ما وراءها . فاتفقتهُ انا رقسطا بن لوقا ودخلنا بيتاً وكتبنا كتاباً يقرؤهُ علينا و يعرفنا اول كل سطر وآخرهُ كأنهُ معنا وكنا نأخذ القرطاس ونكتب و بيننا جدار وثيق فاخذ هو قرطاساً ونسخ ما كنا نكتبهُ كأنهُ ينظر فيما نكتبهُ »

اقول والشطر الاول من القصة يشبه ان يكون هذا الكحل كناية عن التلكوب وان التلكوب كان معروفاً في عهد ثابت بن قرة اي في اوائل القرن العاشر للميلاد ولو لم يشتهر وجودهُ قبل اول القرن السابع عشر للميلاد . فقد ذكر ديوقريطس اعظم فلاسفة اليونان الطبيعيين ان المجرة مؤلفة من نجوم صغيرة لا تعداد لها . ولما كان هذا الفيلسوف قد عاش في القرن الخامس قبل الميلاد على ما يرجحون فقد استدل البعض من قولهِ على ان التلكوب كان معروفاً في زمانهِ . ولكن تبين من قول ابن قرة ان هذا الكحل مكّن بعض اهل بابل من ان ينفذ بصرهُ في الاجسام الكثيفة ويرى ما وراءها انهُ ليس بالتلكوب لما هو معروف من ان التلكوب لا يخترق الاجسام الكثيفة

فما هو اذاً ؟ فهل كانت اشعة اكس معروفة وكانوا يرون بها من خلال الاجسام الظليلة

بقي هناك ثلاثة فروض الواحد ان ثابت بن قرة افتأت الكذب متعمداً ولكني استبعد افتئات فيلسوف مثلهِ « هذب كتاب المجسطي الذي عربهُ حنين بن اسحق العبادي ونقحهُ واوضح منهُ ما كان مستعجماً وكان من اعيان عصرهِ في الفضائل » كما قال ابن خلكان والفرض الثاني انهُ كان مخدوعاً وليس ذلك ببعيد فان المشعوذين في هذا العصر تمكنوا من خدع اكبر العلماء في فرنسا وانكلترا . والثالث ان المسئلة من قبيل قراءة الافكار المشهورة في هذا الزمان . وقد وضعت مرة في يدي شيئاً فحزرهُ قارىء الافكار . وما وقع لي وقع لالوف غيري . ولعل هذا ما وقع لثابت بن قرة في زمانهِ

الفراسة

« نظر اياس بن معاوية يوماً الى رجل غريب لم يرهُ قط فقال هذا غريب واسطي

معلم كتّاب هرب له غلام اسود . فوُجد الامر كما ذكر . فقيل لهُ من اين علمت ذلك فقال رأيتهُ يمشي ويلتفت فعلمت انهُ غريب . ورأيت على ثوبهِ حمرة تراب واسط . ورأيتهُ يمرّ بالصبيان فيسلّم عليهم ويدع الرجال . واذا مرّ بذي هيئة لم يلتفت اليهِ واذا مرّ باسود دنا منهُ يتأملهُ . يقال اصدق الناس فراسة ثلاثة العزيز في قولهِ لامرأتهِ عن يوسف اكرمي مثواهُ عسى ان ينفعنا . وابنة شعيب[1] التي قالت لابيها عن موسى يا أبتِ استأجرهُ ان خيرَ من استأجرت القوي الامين . وابو بكر في الوصية بخلافة عُمرَ »

والقاضي اياس هذا هو ابن معاوية المعدود آية في الذكاء والفطنة حتى ضرب بهِ المثل فيهما . قال ابو تمام في العباس بن المامون

اقدام عمرٍ في سماحة حاتمٍ في حزمِ[2] احنف في ذكاء اياس

ولد في اواسط القرن الاول للهجرة وتوفي اوائل الثاني

وواسط بلَد بالعراق اختطهُ الحجاج في سنتين اي رسم بناءهُ . ومنهُ المثل تفاقل كأنك واسطيٌّ لانهُ كان يستعزم في البناء فيهرمون ويناموا بين الغرباء في المسجد فيجيءُ الشرطيُّ ويقول يا واسطيُّ فمن رفع رأسهُ اخذهُ . فلذلك كانوا يتغافلون ويتنارمون

والفراسة هذه هي ما يسميهِ الانكليز observation اوطريقة زادج . وزادج هذا رجل لا يعرف هل هو حقيقي او وهميّ فهو بذلك مثل هرقل فارس اليونان وعنترة فارس العرب قبل الاسلام ولكن قيل عنهُ انهُ عاش في بابل في عهد الملك موابدار . والملك موابدار هذا لا يعرف علماء التاريخ ولا علماء الآثار والعاديات شيئاً عنهُ ولا قرأوا اسمهُ في قائمة ملوك بابل الذين نقشت اسماؤهم على الآثار المكتشفة . وقد اطال فولتير في ترجمتهِ ولكن التدقيق التاريخي ليس من صفات فولتير كما قال هكسلي في مقالة لهُ عن طريقة زادج (On the method of Zadig.)

اما الفراسة الاخرى وهي الحكم على صفات المرء واخلاقهِ من التفرّس في ملامحهِ فهي ما يسمّى بالانكليزية phrenology اي علم العقل من فرينوس باليونانية ومعناها الدماغ او العقل ولوغوس ومعناها كلام او علم . وهناك فرع آخر من الفراسة وهو الاستدلال على الاخلاق من درس اسارير الكفين

---

(١) هو موسى الكليم واسمهُ في التوراة يثرون وكان كاهن مديان

(٢) وكذلك ضرب المثل في الحلم بحمن بن زائدة

بين هرقل ومعاوية

« يحكى ان هرقل ملك الروم كتب الى معاوية بن ابي سفيان يسألهُ عن الشيء واللاشيء · وعن دين لا يقبل الله غيرهُ · وعن مفتاح الصلاة · وعن غراس الجنة · وعن صلاة كل شيء · وعن اربعة فيهم الروح ولم يرتكضوا في اصلاب الرجال ولا ارحام النساء · وعن رجل لا اب لهُ · وعن رجل لا قوم لهُ · وعن قبر جرى بصاحبهِ · وعن قوس قزح ما هو · وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها سابقاً ولا لاحقاً · وعن ظاعن ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها · وعن شجرة نبتت من غير ماء · وعن شيء يتنفس ولا روح لهُ · وعن اليوم وامس وغد وبعد غد · وعن البرق والرعد وصوته وعن المحو[1] الذي في القمر » (انتهت ملخصة)

« فقيل لمعاوية لست هناك[2] · ومتى اخطأت في شيء من ذلك تسقط من عينهِ فاكتب الى ابن عباس[3] يخبرك عن هذه المسائل · فكتب اليهِ فاجابهُ بقولهِ : اما الشيء قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حي · واما قولهُ لا شيء فانها الدنيا لانها تبيد وتفنى · واما دين لا يقبل الله غيرهُ فلا اله الاَّ الله محمد رسول الله · واما مفتاح الصلاة فالله اكبر · واما غراس الجنة فلا حول ولا قوة الاَّ بالله العلي العظيم · واما صلاة كل شيء فسبحان الله وبحمده · واما الاربعة فآدم وحواء وعصا موسى والكبش الذي فدي بهِ اسحق · واما الرجل الذي لا قوم لهُ فآدم · واما القبر الذي جرى بصاحبهِ فالحوت مار يونس (يونان) في البحر · واما قوس قزح فامان الله تعالى لعباده من الغرق · واما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة فالبحر الذي انفلق لبني اسرائيل · واما الظاعن فجبل طور سيناء كان بينهُ وبين الارض المقدسة اربع ليال فلما عصت بنو اسرائيل اطارهُ الله بجناحيهِ فنادى منادٍ إن قيام التوراة كشفتهُ عنكم والاَّ القيتهُ عليكم · فاخذوا التوراة معتذرين فردهُ الله تعالى الى موضعهِ · واما الشجرة فشجرة اليقطين التي انبتها الله تعالى على يونس · واما الذي ينفس ولا روح لهُ فالصبح · واما اليوم فعمل · واما امس فمثل · واما غد فاجل · واما بعد

---

(١) السواد (٢) اي لست اهلاً للسؤال قال ابن مسعود انى عليها حين لقنا نسأل ولقنا هنالك اي لست اهلاً للسؤال (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم وهو جدّ السفاح والمنصور الخليفتين · قال ابن خلكان « كان سيدًا شريفًا فاضلاً وكان اجل قرشي على وجه الارض واوسعهم واكثرهم صلاة » · وكان يقال له حبر الامة والبحر لكثرة علمه · وعاش بعد ابن مسعود نحو ٣٥ سنة وبعد عمر بن الخطاب نحو ٤٧ سنة يفصد ويستفتى ويعهد

غير فاعل . واما البرق فمخاريق[1] بايدي الملائكة تضرب بها السحاب . واما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره . واما المحو الذي في القمر فقول الله عزّ وجلّ وجعلنا النهار والليل آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة . ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل »

وجاء في رواية اخرى لهذه الحادثة ما يأتي[2] :

« ومما يحكى عن فطنة ابن عباس إن ملك الروم كتب الى معاوية يسأله عن افضل الكلام ما هو . وعن الثاني والثالث والرابع والخامس . وعن اكرم خلق الله . وعن اكرم الاماء على الله . وعن اربعة من الخلق فيهم الروح لم يرتكضوا في رحم . وعن قبر مشى بصاحبه . وعن المجرة والقوس . وعن مكان طلعت فيه الشمس مرة في الزمان . فلما قرأ معاوية الكتاب قال اخزاهُ الله وما علمي بما هنا . فقيل لهُ اكتب الى ابن عباس فكتب اليهِ بذلك فكتب اليهِ ابن عباس ان افضل الكلام لا اله الاَّ الله كلمة الاخلاص لا يقبل عمل الاَّ بها . والثاني تليها سبحان الله وبحمده صلاة الخلق . والثالث تليها الحمد لله كلمة الشكر . والرابع تليها الله اكبر . والخامس لا حول ولا قوة الاَّ بالله . واما اكرم الخلق على الله عزّ وجلّ فآدم خلقهُ الله بيدهِ وعلّمهُ الاسماء كلها . واما اكرم إمائهِ عليهِ فهي مريم التي أحصنت فنفخ فيها الروح . واما الاربعة الذين لم يرتكضوا في الرحم فآدم وحواء وناقة صالح والكبش الذي فدي بهِ اسماعيل (او اسحاق . وقيل عصا موسى حين القاها فصارت ثعباناً . واما القبر الذي مشى بصاحبهِ فهو حوت يونس . واما المجرة فباب السماء . واما القوس فانهُ امان لاهل الارض بعد قوم نوح . واما الذي طلعت فيهِ الشمس مرة فهو البحر الاحمر حين شقهُ الله لبني اسرائيل . فقيل فلما وصل الكتاب الى ملك الروم قال لا علم لمعاوية بهذا وما اصابهُ الاَّ رجل من بيت النبوة » انتهى

اقول اما تعليل الحوادث الطبيعية المذكورة آنفاً فلا يخفى على قراء المقتطف

(نقيب)

---

(١) المخاريق جمع مخراق وهو منديل يلف فيتلاعب الصبيان به ويتضاربون بهِ في مصر طرّة وفي الشام مقرعة والمقرعة في اللغة السوط وكل ما قرعت به . قال ابن كلثوم من معلقته

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بايدي لاعبينا

(٢) ذكرت في دائرة المعارف العربية للبستاني